

الأمل في خط المسؤولية



يُحَدِّثُنَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عَنْ يَعْقُوبَ (ع)، الَّذِي غَابَ عَنْهُ وَلَدُهُ يُوسُفَ (ع) مَدَّةً لَا تَقِلُّ عَنْ ثَمَانِيَةِ عَشْرٍ عَامًا لَا يَعْرِفُ عَنْهُ خَيْرًا، وَهُوَ مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الْحُزْنِ وَالْإِحْتِرَاقِ الْعَاطِفِيِّ عَلَى وَلَدِهِ، لَمْ تَنْطَفِئْ جَذْوَةُ الْأَمَلِ فِي نَفْسِهِ، فَقَالَ لِبَنِيهِ: (يَا بَنِيَّ إِذْ هَبَيْتُمْ فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُّوا مِنْ رَوْحِ اللَّاهِ إِنَّهُ لَا يَهْدِي سُبُلَ مَنْ رَوْحَ اللَّاهِ إِلَّا الْفُقَرَاءُ الْكَافِرُونَ) (يوسف/ 87).

يُؤَكِّدُ لَنَا هَذَا الْحَدِيثُ، أَنَّ الْأَمَلَ لَيْسَ مَجْرَدَ عَمَلِيَّةِ انْفِعَالِ نَفْسِيَّةٍ، تَهْدِي مِنَ الْوَاقِعِ النَّفْسِيِّ الْمُضْطَرِّبِ لِإِنْسَانٍ دَاهَمَتْهُ مَشْكَلَةٌ، أَوْ أَصَابَتْهُ صَدْمَةٌ فِي الْحَيَاةِ، وَإِنَّمَا هُوَ حَقِيقَةٌ تَرْتَبِطُ بِخَطِّ الْعَقِيدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ. فَكُونَ الْإِنْسَانُ مُؤْمِنًا فَهُوَ وَالْأَمَلُ، وَكُونَ كَافِرًا فَهُوَ وَالْيَأْسُ، وَكُونَ آمِلًا فَتَفَائِلًا فَهُوَ الْإِيمَانُ، وَكُونَ يَأْسًا فَتَشَائِمًا فَهُوَ عَلَى شَفَا الْكُفْرِ.

فَمَا دَخَلَ الْإِيمَانَ بِالْعَزِّ وَجَلَّ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ إِلَّا وَهُوَ يَخْتِزِنُ فِي حَقِيقَتِهِ رُوحَ التَّفَاؤُلِ وَالْأَمَلِ، وَالانْفِتَاحِ عَلَى الْحَيَاةِ، وَالثِّقَةِ بِمَصْدَرِ الْعِنَايَةِ وَالرَّعَايَةِ الَّذِي يَمُدُّ الْحَيَاةَ بِخَزِينٍ لَا يَنْفَدُ مِنَ الْخَيْرِ وَالْيُسْرِ

فيعتبر الأمل هو الومضة التي نتحرّك بها في الحياة الدنيا لا من أجل الدنيا، وإنما من أجل أن نوجه الدنيا، ونخضع هامها للقيم والمفاهيم العالية، التي تتحرّك بدورها بحياتنا باتجاه خدمة الدار الآخرة.

فالقرآن عندما يُحدِّثنا عن الأمل، فهو يريد منّا أن نكون في لحظة الضعف على مشارف القوّة، لإيماننا بمصدر القوّة: (أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) (البقرة/ 165)، وفي لحظة الذل على مشارف العزّة، لإيماننا بمصدر العزّة: (أَيَّ يَتَغَوَّنَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) (النساء/ 138). بمعنى أنّنا إذا ما ضعفنا وقوي علينا الآخرون، فهناك فرصة بأن نقوى (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (آل عمران/ 139).

فالآية تُعطي الإنسان المؤمن شعورًا بالمدد والعناية الربّانية، وتمنحه إرادة قويّة، تتحدّى الاستسلام للواقع.

بشرط أن يكون في خط الإيمان والتقوى (إِنَّ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ) (الأنفال/ 29)، (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَّوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) (إِنَّ اللَّهَ بِأَلْبَابِ أَمْرِهِ قَدِيرٌ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا) (الطلاق/ 2-3).

لأنّ الإيمان يستبطن في حقيقته الأمل بقدره [عزّوجلّ] على تغيير الأحوال (وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدِّدُوا بِهَا وَيُنَزِّلُ عَلَيْكَ مِنَ السَّمَاءِ لُحُوبًا يَأْكُلُونَ جِلْدَهُمْ نَارًا وَيَسْجُونَ فِيهَا أَعْطَابًا يَصْرِفُونَ) (آل عمران/ 140)، بينما يستبطن الكفر اليأس من روح [عزّوجلّ]، وعدم الثقة بقدره [عزّوجلّ] (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) (يوسف/ 87).

إذن، هذا هو الأمل الذي ينسجم مع المسؤولية الرسالية للإنسان المؤمن، قال رسول الله (ص): "الأمل رحمة لأمتي، ولولا الأمل ما أَرْضعت والدّة ولدها، ولا غرس غارس شجرة)، فكذلك - إذن - لولا الأمل ما أدّى مؤمن حقاً للرسالة والأُمَّة.

فالأمل هو العنصر الذي من خلاله يستطيع المؤمن أن يُحرِّك الدنيا باتجاه الصنع الإيجابي، والأداء الرسالي الذي يتحرَّك به نحو العزِّ وجلِّ، وباتجاه القيم والتكامل الروحي والأخلاقي.

وكلُّ أمل لا يسعى بالمرء بهذا الاتجاه فليس من القرآن، وليس من الرسالة والمسؤولية في شيء. وهو الأمل الداعي إلى الغفلة، وإلى التعلق بالمفاهيم الخيالية وغير الواقعية، الأمل الذي يقعد الإنسان عن التخطيط للغاية التي من أجلها يجب أن يتحمَّل المسؤولية (ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) (الحجر/ 3).

وقال الإمام عليّ (ع): "اتَّقوا باطل الأمل فربَّ مستقبل يوم ليس بمستديره، ومغبوط في أوَّل ليل قامت بواكيه في آخره".

وقال (ع): "اتَّقوا خداع الآمال، فكم من مؤمل يوم لم يدركه، وباني بناء لم يسكنه، وجامع مال لم يأكله".

فهنا يضعنا الإمام عليّ (ع) أمام مسؤولية الأمل من ناحية، وأمام خداعه من ناحية أخرى، وبهذا ينبغي أن نتحرَّك بالأمل ولا ننسى خداعه.

إذن، فالنتيجة التي نخرج بها، من خلال ما يطرحه القرآن الكريم والقادة المعصومون (عليهم السلام)، هي: أن الإسلام يعطي للأُمَّة خط التوازن بين آمالها وتطلُّعاتها، بين دنياها وآخرتها، وبين حياتها وموتها، لتعطي الأُمَّة الحياة دورها وحركتها في خط المسؤولية التي أراد العزِّ وجلِّ منها، فلا أمل يسقطها في هوة الصياع والتمتاهات، ولا يأس بأسرها ويقيدها في دائرة القعود والجمود.

ففي كلِّ الأحداث التاريخية التي انتصر بها الحقُّ على الباطل، كان للحقِّ >مَلته وللباطل >مَلته، وكان >مَله الحقِّ يتحرَّك نحو أهدافهم وغاياتهم التي رسمها العزِّ وجلِّ لهم في خط المسؤولية.

فكان الأمل في حركتهم، يعني ما رسمه العزِّ وجلِّ لهم من مستقبل يتحدَّى كلِّ الصعوبات التي تعترض الطريق، وتربط الخطوات، وتجهض الحركة والمسير نحو العزِّ وجلِّ.

سواء كانت الحركة على مستوى التطبيق الفردي للعبد المؤمن الذي يسعى إلى العزِّ وجلِّ بأداء

التزاماته وواجباته، فهو يسعى على أساس ما وعده الله من الرحمة التي يرجوها ويتحدث بها عقبة اليأس (أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ أَنْزَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ) (الزُّمَرُ/ 9)، (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) (الزُّمَرُ/ 53).

أو كانت الحركة على مستوى مسؤولية الأُمَّة نحو الغاية المشتركة التي يتوقف عليها مصيرها، فإنَّ الأمل يتحرك في صميم مسؤوليتها، متحدياً كلَّ العقبات والأهوال (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدَّ جَمَعُوا لَكُمْ فَآخِشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانزَلنا عليهم الكتاب من السماء وفضلنا لهم يمسسهم سوءً واتَّبَعُوا رضوانَ الله واللاه ذو فضلٍ عظيمٍ * إنَّما ذلكمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ) (آل عمران/ 173-174).

فهنا يُحدِّثنا القرآن الكريم بأنَّ هذه الثلة، قد بلغت بحركتها ما ترمي إليه من غاية، وهي رضوان الله عزَّ وجلَّ في خط مسؤوليتها، وذلك بإيمانها الذي يستبطن الأمل بما عند الله من نعمة وفضل، ثمَّ حدِّثنا القرآن في هذا السياق، أنَّ الشيطان يترصد لهذا الخط، لينشر الخوف أمامكم، ويزرع اليأس في نفوسكم؛ ولكنَّه لا سبيل له إلا على أوليائه، يخوفهم بأسكم (إِنَّما ذلكمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ) (آل عمران/ 175)، لأنَّهم بولائم للشيطان ضعفاء مخذولون يائسون (وَخَافُونَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ) (آل عمران/ 175).